الصلاة على النبي

(القسم الأول)

الإمام عبد الحميد بن باديس
تحقيق أ. محمد الصالح رمضان*

الصّلاة على النّبي صلّى الله عليه وآله وسلّم من أصول الأذكار في الإسلام ومن أعظمها، فإن الله تعالى أمر بها المؤمنين على أبلغ أسلوب في التأكيد، وأكمل وجه في الترغيب وجعلها من الأذكار اليومية المتكررة في الصلوات، وهي ذكر لساني بتلاوة لفظها ويتدبر معانيها. وهي ثمرة لرسوخ الإيمان وشدة المحبة، وتمام التعظيم له صلّى الله عليه وآله وسلّم المثمرين لإتباعه، المحصل لمحبة الله عبده، وتلك غاية سعادة المخلوق ونهاية كماله: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[1]. فما يتأكد على كل مسلم أن يكون على شيء من العلم بهذا الكنز العظيم.

القسم العلمي ؟

الصّلاة لغة وشرعا: الصّلاة في لسان العرب قبل الإسلام وردت بمعنى الدعاء "قال الأعشى[2]:

وصهبـــاء طاف يهوديا   وأبرزها وعليهـــا ختم
وقابلهـــا الريح في دنها   وصلّى على دنها وارتسم

---

* من كتاب "*من هدي النبوة*" للإمام عبد الحميد بن باديس (جمع وتصنيف ومراجعة وتعليق وتقديم الأستاذ محمد الصالح رمضان).

1. سورة آل عمران، الآية 31 - 2. الأعشى هو ميمون بن قيس ينتهي نسبه إلى بكر ويلقب الأعشى لقصر بصره، ولد باليمامة قرب الرياض، وهو من شعراء الجاهلية المبرزين وتوفي في أوائل ظهور الإسلام.

قال صاحب اللسان : دعا لها ألا تمحض ولا تفسد

وقال الأعشى أيضا :

عليك مثل الذي (صليت) فاغتمضى

نوما فإن لجنب المرء مضطجعا (أي دعوت)

فالدعاء هو معناها اللغوي الأصلي، وعليه جاءت كلمات كثيرة في الكتاب والسنة فمنها :

وصلوات الرّسول أي دعواته وصل عليهم أي ادع لهم وحديث "إذا دعي أحدكم لطعام فليجب، فإن كان مفطرا فليطعم، وإن كان صائما فليصل"، أي فليدع الطعام، والصلوات لله، أي الأدعية التي يراد بها تعظيم الله هو مستحقها لا تليق بأحد سواه كما في "اللسان".

جاءت هذه الكلمات وأمثالها على المعنى اللغوي الأصيل، وجاء مثل قوله تعالى : ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾[1] وقوله صلى الله عليه وسلّم: "لا صلاة لجار المسجد في غير المسجد"، مراد به عبادة مخصوصة ذات أقوال وأفعال وتروك على هيئة خاصة، من جملة أجزائها الدعاء، ولا شك أن إطلاقها على هذا المعنى : إنما هو إطلاق شرعي، ولكنه غير خارج عن أساليب كلام العرب، فإنه من باب تسمية الشيء باسم جزئه فإطلاق هذا اللفظ على هذه العبادة المخصوصة حقيقة شرعية،مجاز لغوي، وليس هذا مرادنا هنا.

وقد كان الظاهر لما كانت بمعنى الدعاء أن تتعدى باللام، ولكنها تعدت بعلى، لما فيها من معنى العطف فصلى عليه يؤدي معنى قولنا "دعا له عاطفا عليه، هذا هو السر في اختيار لفظها على لفظة لتؤدي المعنيين (الدعاء والعطف) وإن كان لفظ الدعاء يقتضي عطفا فذلك بطريق الاستلزام وهو دون دلالة التضمن.

---

1. موقوتا : أي محدودة الأوقات مقدرا.

من تكون منه ومن تكون عليه؟

تكون هذه الصّلاة من المخلوق على المخلوق ومن الخالق على المخلوق فمن الأول: صلاة النبيّ صلّى الله عليه وسلم على المؤمنين كما في الآيتين السابقتين، ومنها قوله صلى الله عليه وسلّم: "اللّهمّ صل على آل أبي أوفى"، فقد دعا لهم وسأل الله تعالى أن يصلي عليهم، وصلاته على نفسه في تشهده في الصّلاة. ومنه صلاة الملائكة على النّبي صلّى الله عليه وسلم كما في آية الصلاة من سورة الأحزاب وصلاتهم على المؤمنين كما في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ﴾[1] ويفسر هذه الآية قوله تعالى:﴿وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾[2]، وهذا منهم دعاء عام، وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾[3] وهذا دعاء خاص، وكما في حديث: "من صلى علي صلاة صلت عليه الملائكة عشرا"، وحديث إذا صلّى أحدكم ثم جلس في مصلاه لم تزل الملائكة تصل عليه : "اللّهمّ اغفر له اللهم ارحمه". ومنه صلاة المؤمنين على النّبي صلّى الله عليه وسلّم وعلى الأنبياء وعلى الملائكة، وعلى عامة المؤمنين بطريق التبع، فهي سؤالهم من الله تعالى، ودعاؤهم إياه أن يصلي على نبيّه ومن ذكر قيل معه، فهذه كلها من القسم الأول، وهو صلاة المخلوق على المخلوق، و كلها لم تخرج عن معنى الدعاء.

ومن الثاني: وهو صلاة الخالق على المخلوق، صلاته على المؤمنين في قوله تعالى:﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾[4].

---

1. سورة الأحزاب، الآية 43 ـ 2. سورة الشورى، الآية 5 ـ 3. سورة غافر، الآية 7
4. سورة الأحزاب، الآية 43.

وصلاته على الصابرين في قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾[1]. وعلى نبيه محمد صلّى الله عليه وسلّم ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾[2].افقد تنوعت عبارات العلماء سلفا وخلفا في تفسير صلاته تعالى على من خلقه ففسرت بالرحمة ـوالجمع في قوله "صلوات" باعتبار أنواع آثارها ومواقعها. وقوله بعدها و"رحمة" نوع خاص ـ وفسرت بالمغفرة وفسرت بثنائه عند ملائكته على المصلى عليه في بابـ ذكرته في ملأ خير منهـ وفسرت بإعطائه وإحسانه وفسرت بتعظيمه، ولا خلاف في الحقيقة بين هذه التفاسير، فإن مغفرته من رحمته وإن ثناءه من رحمته وإن عطاءه وإحسانه من رحمته، وإن تعظيمه من رحمته فرجعت كلها إلى تفسيرها بالرحمة.

تفسير الصّلاة باللازم : لو قلنا بعد هذا: إن الصّلاة لها معنيان: الدعاء والرحمة لكانت من باب المشترك، والاشتراك خلاف الأصل، لذا نقول كما قالت جماعة المحققين: إن الصّلاة معناها واحد وهو الدعاء، فأما من المخلوق فبدعائه الخالق وهو ظاهر، وأما من الخالق فبدعائه ذاته لإبطال الخير والنعمة للمصلي عليه على تفاوت المراتب ومن لازم هذا رحمته له بالمغفرة والثناء والتعظيم وأنواع العطاء والإحسان.

فالذين فسروا بغير الرحمة فسروا بمقتضيات ذلك اللازم فلها إذن معنى واحد هو الدعاء ولكنه يحمل في كل واحد من الجانبين على ما يليق به.

تاريخ وآية مشروعيتها : الصّلاة على النّبي صلّى الله عليه وسلّم من أذكار الصّلاة بمكة بل كانت مشروعيتها بعد بضع سنوات من الهجرة، وذلك يوم نزلت آية الأمر بها في سورة الأحزاب وهي سورة مدنية.

1. سورة البقرة، الآية 157 ـ 2. سورة الأحزاب، الآية 55.

ففي الترمذي وغيره عن كعب بن عجرة لما نزلت ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾ قلنا يا رسول الله قد علمنا السّلام فكيف الصّلاة؟ فعلّمهم حينئذ كيفيتها كما سيأتي بيانه.

شيء من تفسير الآية: قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ هو آية الأمر بالصّلاة على أبلغ أسلوب في التأكيد وأكمل وجه في الترغيب. فمن التأكيد للأمر التوطئة له بجملتين الجملة الاسمية المصدرة بحرف التأكيد والجملة الفعلية الندائية ومن أعظم الترغيب في امتثال هذا الأمر جعل امتثاله اقتداء بالله وملائكته.

وفي عطف الملائكة عليه تعالى تنبيه على ثمرة الامتثال والاقتداء، وهي نيل أشرف المنازل، فإن الملائكة عليهم السّلام بامتثالهم أمر ربّهم واقتدائهم به ـجلّ اسمهـ في الصّلاة على أكرم خلقه ـصلّى الله عليه وآله وسلّمـ نالوا شرف اقتران اسمهم باسمه، وفي هذا و وراءه من الشرف والسعادة ما فيه.

وقوله تعالى : ﴿يصلّون﴾ معناه اللغوي الأصلي وهو الدعاء. غير أن الملائكة يدعون ربّهم له صلّى الله عليه وسلّم والله يدعو نفسه والمراد ـونذكر ما قدمناـ لازم ذلك وهو إنعامه الخاص الذي يرضاه لأكرم خلقه وتقصر عقولنا عن الإحاطة به وقد عبّر الناس عنه بعبارات نقلنا بعضها في القسم الأول.وفي صيغة الفعل المضارع "يصلّون" دليل على تجدد هذه الصلاة " فالملائكة ـعليهم السّلامـ لا يفتئون يصلون ويدعون، والله تعالى لا تنقطع إنعاماته على هذا النّبي الكريم، و هو ـصلّى الله عليه وآله وسلمـ بتلك الإنعامات الربانية لا يزال أبدا مترقيا في درجات الكمال، ويؤيد هذا العموم قوله تعالى ﴿وللآخرة خَيرٌ لَكَ مِن الأولَى﴾ وفي هذا ترغيب للمؤمنين في مداومة الصلاة عليه حسب الجهد والطاقة في الصلاة وغيرها.

اختيار اسم النبي: قيل هنا "على النّبي" ولم يقل على الرّسول وهو صلّى الله عليه وسلّم نبي ورسول ذلك لأن الرّسول هو المبعوث لأداء الرسالة من الخالق إلى الخلق، فالجانب الأول الأساسي لمعناه يرجع إلى معنى التلقي والأخذ عن الذي أرسله، والنّبيّ هو المخبر المبلغ للرسالة إلى الخلق من الخالق، والجانب الأول الأساسي لمعناه يرجع إلى معنى إعلام الخلق وإرشادهم وهدايتهم بما جاء به من عند خالقهم فاختير اسم النّبيّ هنا على اسم الرّسول لوجهين :

الأول : التنبيه على أنه قام بأعباء الرسالة وبلّغ الأمانة ونصح الخلق ونفعهم فجازاه الله على هذا العمل العظيم بهذا الجزاء العظيم، كما كان هو صلّى الله عليه وسلّم معلنا بتوحيد الله وتسبيحه وتقديسه وحمده أمام العالم بأسره، كذلك أعلن الله فضله ومكانته بصلاته عليه أمام جميع خلقه وفي هذا تنبيه المؤمنين على عظيم الجزاء عند عظم العمل وعلى إعلائه تعالى شأن العاملين على إعلاء كلمته على قدر جهادهم في سبيله وإخلاصهم في ابتغاء مرضاته.

الثاني : أنه بذلك التبليغ قد جلب للمؤمنين أعظم النفع وأكمل الخير و هو سعادة الإيمان في العاجل والآجل. فمن بعض حقه عليهم أن يقوموا ـ لتعظيمه وتكريمه ـ بالصّلاة عليه. فتكون صلاتهم عليه ـ وهي سبب أجر عظيم ونفع كبير لهم ـ كالجزاء لعظيم إحسانه ـ والاعتراف بجزيل جميله.

فاسم النّبيّ بهذين الوجهين أنسب بالمقام وأدخل في التأكيد والترغيب ولهذا اختير.

وقوله تعالى ﴿وسَلِّمُوا تَسْليما﴾ [1] أمر ثان معطوف على الأمر الأول فيفيد النسق طلب الجمع بين مدلوليهما في الامتثال. ولذا كرّه العلماء إفراد الصّلاة عن السّلام.

---

1. سورة الأحزاب، الآية 56.

"وسلّم" يأتي بمعنى الانقياد ويتعدى باللام ومنه قوله تعالى ﴿فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾[1] ويأتي بمعنى قال له : السّلام عليكم، ويتعدى بعلى، ومنه قوله تعالى ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً﴾[2]. ومنه هنا سلّموا تسليما أي حيوه بتحية الإسلام. وقد ثبت عن الصحابة رضي الله عنهم، أنهم لما سألوه عن كيفية الصّلاة قالوا له: السّلام قد علمناه فبين لهم كيفيتها، وقال لهم والسّلام كما علمتم. وقد كان علمهم كيفية السّلام في التشهد وهي : السّلام عليك أيّها النّبي ورحمة الله وبركاته. كما في حديث ابن مسعود الثابت في الصحيح.

وبعد هذا لا يبقى وجه لتجويز حمل التسليم هنا على معنى الانقياد كما زعمه الجصّاص وغيره، ويا لله من الجري وراء الاحتمالات والغفلة عن التفسير النّبويّ الصحيح الثابت المأثور.

نكتة التأكيد

وقوله تعالى ﴿تسليما﴾ مصدر مؤكد، والتأكيد بالمصدر تكون لرفع احتمال المجاز كما في " قتلته قتلا دفعا لتوهم المجاز عن الضرب الشديد ويكون لتثبيت معنى الفعل من جهة الحدث، ببيان أنه فرد كامل من نوعه لا نقص فيه، كما في: "أكرمت زيدا إكراما"، بمعنى أن الذي كان منك له إكرام لا شبهة فيه.

والتأكيد هنا من هذا النوع، فإن المسلّم على النّبي صلّى الله عليه وسلّم لا يكمل سلامه إلا إذا طابق قلبه لسانه، وجرى على مقتضاهما عمله، فلم تكن منه للنّبيّ صلّى الله عليه وسلّم إلا السلامة في دينه وكتابه وأمته، وهذا هو الذي يقال فيه إنه سلّم تسليما. ونظير هذا ما في الآية الأخرى: ﴿ويسلموا تسليما﴾ فيكون منهم الانقياد التام لحكمه في الظاهر

1. سورة النساء، الآية 65 ـ 2. سورة النور، الآية 61.

والباطن، فلا أدنى شبهة في العقل وأدنى حزازة في القلب ولا أدنى تَوَقُّفٍ في العمل.

قد أمرنا في الآيتين بالتسليم الكامل بمعنييه ليكون هو الغاية التي نرمي إلها ونسعى في تحصيلها، حتى إذا أخطأنا مرة أصبنا مرات، وإذا انحرفنا رجعنا على الجادة من قريب. ومن داوم على القصد أعين على الوصول ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾[1] ومن لازم التوبة اتحف بالقبول ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾[2] وفي قول المربي الأكبر ـعليه وآله الصّلاة والسّلام ـ "استقيموا ولن تحصوا" وقوله "سدّدوا وقاربوا"[3] جماع السلوك الإسلامي كله إلى غايات الكمال والله المستعان.

توقف الصحابة ووجهه : لما سمع الصحابة ـرضي الله عنهم ـ الأمر بالصّلاة على النّبي صلّى الله عليه وسلّم من الآية المتقدمة فهموا أنهم أمروا بالدعاء له، لأن الدعاء هو معنى الصّلاة لغة كما قدمنا. وإنما الذي أشكل عليهم هو كيفية هذا الدعاء، ووجه هذا الإشكال أمور :

الأول : علمهم بكمال حال النّبي صلّى الله عليه وسلّم ورفعة مقامه عند ربّه وجزيل إنعامه لديه، فلم يدروا ما هو النوع الأكمل من الإنعام اللائق بمنصبه الرفيع للدعاء له به.

الثاني : أن ألفاظ الدعاء كثيرة، وصفاتها مختلفة، فما هو أنسبها بمقامه الشريف؟

الثالث : أن الصّلاة عليه صلّى الله عليه وسلّم أمر تعبدي، والعبادات لا سبيل إليها إلا التوقيف وأكد لهم هذا: أن الصّلاة قد قرنت بالسّلام وقد تقدم لهم التوقيف في السّلام فتوقعوا مثله في الصّلاة.

---

1. سورة العنكبوت، الآية 69 ـ 2. سورة البقرة، الآية 222 ـ 3. السداد بالفتح هو الصواب والقصد من القول والعمل، والمقارب بكسر الراء هو الوسط.

سؤال الصحابة والعبرة منه: فلمّا أشكل عليهم الأمر طلبوا منه صلّى الله عليه وسلّم البيان: ففي الترمذي عن كعب بن عجرة:" لما نزلت إن الله وملائكته الآية. قلنا يا رسول الله قد علمنا السلام، فكيف الصلاة، وقوله: "لما" يفيد أن سؤالهم كان عند النزول: وقوله "قلنا" يفيد أن السؤال كان من جميعهم ولو كان السائل التكلم واحد فإنه يتكلم بلسان الجميع،لأنهم له موافقون. ومثل هذا قول أبي حميد : "أنهم قالوا" يا رسول الله كيف نصلي عليك؟

وقول أبي سعد:" قلنا يا رسول السّلام عليك فكيف نصلّي؟ وأول من سأله ـ فيما أدري ـ بشير بن سعد الأنصاري، لأنه لما سأله صلى الله عليه وسلّم كيف نصلي عليك ؟ سكت ثم أجابه بالبيان.

والظاهر أن سكوته كان لانتظار الوحي إليه أوحى إليه بالبيان بين وجاء البيان متأخرا عن نزول الآية واقعا بعد سؤالهم لأنه، لأنه من البيان التفسيري وجائز تأخره على الصحيح وهذا من أمثلته.

وهنا نكت من هدي الصحابة رضوان الله عليهم في هذا المقام ينبغي التنبيه لها والتدبر فيها:

1. فمنها شدة تعظيمهم للنبيّ صلّى الله عليه وسلّم وتمام تحريمهم في إجلال ذكره و احترام كل ما يتصل بجنابه.

2. ومنها حرصهم على الإتيان بعين ما يختاروه الله لهم ويرضاه منهم من اللفظ الأكل أفضل الذي يتقرّبون به إليه في تعظيم حبيبه ومصطفاه صلّى الله عليه وسلم.

3. ومنها شدة تحريهم لدينهم بتوقفهم فيما كان عندهم محتملا، ولم يقطعوا فيه بشيء.

4. ومنها شدة عنايتهم بالعلم فبادروا إلى طلب البيان.

5. ومنها وقوفهم في باب العبادة عند حد التوقيف لأنه لا مجال فيها للرأي ولا مدخل فيها للقياس.

لزوم الاقتداء بالصحابة : كل هذا من هديهم رضوان الله عليهم حق على المسلمين أن يتدبروه ويتبعوهم وينظروا في أمورهم ما هو منها موافق لهديهم أو قريب منه. فلا وربك لا يكون الخير إلا في موافقتهم ولا غيره[1] إلا في مخالفتهم وكل امرئ بعد هذا بنفسه بصير.

أحاديث بيان كيفية الصّلاة : نعود إلى حديث بيان كيفية الصلاة، ونقتصر على الصحيح الثابت المتفق عليه، مما في الموطأ والصحيحين.

وقد جاء فيها عن أربعة من الصحابة رضوان الله عليهم:

الأول : أبو حميد الساعدي عند الثلاثة، والشيخان خرجاه عنه من طريق مالك. قال صلّى الله عليه وسلّم: "إنهم قالوا يا رسول الله كيف نصلّي عليك ؟ فقال قولوا اللّهم صلّ على محمّد وأزواجه وذريته. كما صليت على آل إبراهيم، إنّك حميد مجيد" وفي رواية مسلم وعلى أزواجه بزيادة على في الوضعين.

الثاني : أبو مسعود الأنصاري في الموطأ وصحيح مسلم، من طريق مالك رواه مسلم قال صلّى الله عليه وسلّم: "أتانا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في مجلس سعد بن عبادة فقال له بشير بن سعد بن ثعلبة "أمرنا الله أن نصلي عليك يا رسول الله، فكيف نصلي عليك؟ قال: فسكت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم حتى تمنينا أنه لم يسأله لأنهم كانوا يكرهون كل ما يرونه أنه يكرهه أو يشق عليه ثم قال: "قولوا اللّهم صلّ على محمّد وعلى آل محمّد، كما صليت على إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد والسّلام كما قد علّمهم".

---

1. هو الشر.

وفي بعض روايات الموطأ: "كما صليت على إبراهيم" و "كما باركت على إبراهيم بدون لفظة "آل" في الوضعين، وفي بعضها بدونها في الأول.

الثالث : كعب بن عجرة في الصحيحين قال الرّسول صلّى الله عليه و سلّم" سألنا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فقلنا: يا رسول الله كيف الصّلاة عليك أهل البيت فإنّ الله علّمنا كيف نسلّم ؟ قال: قولوا: اللّهم صلّ على محمّد وعلى آل محمّد، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنّك حميد مجيد، اللهم بارك على محمّد وعلى آل محمّد، كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنّك حميد مجيد". هكذا خرجه البخاري في أحاديث الأنبياء من كتاب بدء الخلق. وخرجه في سورة الأحزاب من كتاب التفسير، وفي كتاب الدعوات هكذا: "كما صليت على آل إبراهيم" و " كما باركت على آل إبراهيم" بدون "على إبراهيم" في الموضعين وعلى هذا الوجه خرجه مسلم.

الرابع : أبو سعيد الخدري عند البخاري في أحاديث الأنبياء والتفسير قال صلّى الله عليه وسلّم: قلنا يا رسول الله: هذا السّلام عليك، فكيف نصلي ؟ قال :"قولوا: اللّهم صل على محمّد عبدك ورسول، كما صلّيت على إبراهيم، وبارك على محمّد وعلى آل محمّد، كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم" وفي رواية أخرى للبخاري: وكما صليت على آل إبراهيم" بزيادة لفظة "آل"، وليس في آخرها و على آل إبراهيم.

نظرة في المتون

وهذه المتون الصحيحة كلّها قد اتفقت، واختلفت: اتفقت في عمود الكلام وصلب المعنى ومعظم الكلمات، واختلفت في كلمات قليلة :

فمنها لفظة "على" كما في حديث أبي حميد، وهي كلمة ذكرها كحذفها من جهة المعنى، لأن حرف العطف مغن عنها، فقد تكون في الأصل وأسقطها الراوي نسيانًا أو اختصارًا. وقد لا تكون وزادها من زادها نسيانًا أو بيانًا. ومنها لفظة " الآل" في حديث أبي مسعد فهي ثابتة في رواية من أثبتها، وتحتمل السقوط على وجه النسيان في رواية من أسقطها، ويحتمل أنه كذلك سمع بدونها، وأن النّبي صلّى الله عليه وسلّم مرة ذكرها ومرة حذفها. ومنها زيادة عبدك ورسولك في حديث أبي سعيد: وزيادة في العالمين في حديث أبي مسعود. وذكر الأزواج والذرية بدل الآل في حديث أبي حميد.

والظاهر في هذه: أنّ النّبي صلّى الله عليه وسلّم تنوع بيانه في المقامات فاختلفت الروايات وهي مختلفة غير متناقضة، فتفيد المعاني المتغايرة غير المتضاربة. وهي بهذا نظير اختلاف القرآن في صحيح الروايات. هذا الذي ذكرناه من الروايات هو الصحيح المتفق على صحته وثبوته، ووراءها روايات ليست في درجتها. رأينا الاكتفاء بالصحيح عنها.

كلام الحافظ ابن العربي

وقد قال الإمام الحافظ ابن العربي في تفسير سورة الأحزاب من أحكامه، بعد ما ذكر ثماني روايات: "من هذه الروايات صحيح ومنها سقيم، وأصحها ما روى مالك : "حديث أبي حميد وحديث أبي مسعد فاعتمدوه". ورواية من روى غير مالك من زيادة الرحمة مع الصلاة وغيرها (غير الرحمة) لا يقوى. وإنّما على النّاس أن ينظروا في أديانهم نظرهم في أموالهم، وهم لا يأخذون في البيع دينارًا معيبًا، وإنّما يختارون السالم الطيب. كذلك في الدين لا يؤخذ من الروايات عن النبي صلّى الله عليه وسلّم إلاّ ما صح سنده، لئلا يدخل في خبر الكذب على النّبي صلّى الله عليه وسلّم. فبينما هو يطلب الفضل إذا به قد أصاب النقص، بل ربما أصاب الخسران المبين".

وسنتكلم على كيفية استعمال هذه الروايات المتقدمة عند الذكر، والصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلّم ـ في القسم العملي، صيغ الصلاة الثابتة وتفسيرها:

قد حصل لنا مما تقدم في روايات حديث بيان الصلاة: أربع صيغ لها:

الأولى : "اللهم صل على محمد وأزواجه وذريته، كما باركت على آل إبراهيم، إنّك حميد مجيد".

الثانية : "اللّهم صلّ على محمد وعلى آل محمّد كما صليت على آل إبراهيم، وبارك على محمّد وعلى آل محمّد كما باركت على آل إبراهيم في العالمين، إنّك حميد مجيد".

الثالثة : "اللّهم صلّ على محمّد وعلى آل محمّد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنّك حميد مجيد، اللهم بارك على محمّد وعلى آل محمّد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنّك حميد مجيد".

الرابعة : "اللّهم صلّ على محمّد عبدك ورسولك، كما صلّيت على إبراهيم وبارك على محمّد وعلى آل محمّد، كما باركت على إبراهيم وآل إبراهيم".

الصّلاة :

فأما الصّلاة المطلوبة من الله تعالى في جميع هذه الصيغ فهي مغفرته وثناؤه وتعظيمه وإحسانه وعطاؤه، وكلّها ترجع إلى رحمته – كما تقدم.

البركة :

وأما البركة المطلوبة في جميعها أيضا فهي _لغة_ النماء الزيادة. والمقصود هنا زيادة الخير والكرامة وتكثير الأجر والمثوبة. وفسّرت بدوام ذلك وثباته لأنّ أصل مادة (بارك) يدل على الثبوت، ومنها بروك الإبل وثبوتها على الأرض. وقد يعتبر في الشيء الثابت قوته وذكاوة أصله؛

فيستلزم ذلك كثرته ونماؤه، وعلى هذا الاعتبار جاء لفظ البرك كحبل اسما للإبل الكثيرة، في قوله متمم بن نويرة :

إذا شارفت منهن قامت ورجعت حنينا، فأبكى شجوها البرك أجمعا

فتفسيرها بالنماء والزيادة، مأخوذ فيه ثباتها ورسوخها، فلا يكون خارجًا عن المعنى الأصلي للمادة.

الأزواج :

وأما أزواجه، في الصيغة الأولى، فهن أمهات المؤمنين الطيبات الطاهرات عليهن الرضوان.

الذرية :

وأما (ذريته) فيها أيضا، فهم من كان للنبيّ صلّى الله عليه وسلّم، ولادة عليه من ولده، وولد ولده ممّن آمن به.

الآل :

وأما (الآل) في جميعها فهو ـلغةـ أهل الرجل وعياله. وهو أيضًا ـ الأتباع.

ومن الأوّل : قوله صلّى الله عليه وسلّم: "إنّ الصدقة لا تحل لآل محمّد، إنّما هي أوساخ الناس"، ولا خلاف أن المراد بالآل هنا ذوو قرابته من بن هاشم والمطلب، أو من بني هاشم فقط، أو من بني قصي أو قريش كلها على اختلاف بين الفقهاء في تحديد القرابة المرادة

ومن الثاني : قوله تعالى: ﴿**أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ**﴾[1] والمراد أتباعه في ملته وملكه وسلطانه. ومنه قول الأعشى:

---

1. سورة غافر، الآية 46.

فكذبوها بما قالت فصبحهم ذوو آل حسان يزجى السم والسلعا[1]

قال في "اللسان" يعنى جيش تبع.

وفسر هنا بجميع أمته ممن آمن به، وإليه ذهب مالك: قال النووى: وهو اختيار الأزهري وغيره من المحققين. وفسر بقرابته. وفسر بأهل بيته صلّى الله عليه وآله وسلّم، أزواجه وذريته.

وتحقيق هذه المسألة

أن لفظه "آل" أصله أول من مادة (أول) وقد ثبت تصغيره على أويل، فرد التصغير ألفه إلى الواو أصلها فعرفت بذلك مادته المذكورة.

وزعم بعضهم: أن أصله أهل، وادعوا أنه صغر على أهيل. ولا حجة لهم في ذلك، لأننا نسلم مجيء لفظ أهيل عن العرب، ونمنع أن يكون تصغير الآل، بل هو تصغير لأهل. وكونه تصغير الأهل ظاهر ملفوظ وكونه تصغير الآل دعوى لا دليل عليها. وما كان في نفسه دعوى بلا دليل لا يصلح أن يكون دليلا لدعوة أخرى، فلم يقم حينئذ دليل على أن آل أصله يعارض الدليل الّذي قام على أن أصله (أول).

وإذا ثبت أن آل من مادة (أول)، وهي بمعنى الرجوع، تقول آل إلى خير بمعنى رجع إلى خير، ومآل الشيء هو ما يرجع إلى ذلك الشيء وينتهي إليه بوجه من الوجوه. وعلى هذا ما جاء استعماله في كلام العرب.

قال الفرزدق[2]:

نجوت ولم يمنن عليك طلاقه سوى ربة التقريب من آل أعوجا

عنى فرسا من نسل أعوج، وهو فحل مشهور في خيل العرب تنسب إليه الأعوجيات، فآله نسله، لأنه يرجع إليه بالنسب.

---

1. يزجى السم .... أي يدفع السم بمعنى الموت، والسلع بمعنى الشجة والفجوة التي تؤدي إلى الموت أيضا ـ 2. الفرزدق هو أبو فراس همام بن غالب أحد فحول الشعراء الأمويين، نشأ بالبصرة، وتوفي سنة 110 هـ.

وقال عبد المطلب بن هاشم ـ في قصة أبرهة الحبشي لما جاء لهدم البيت داعيا ومستنصرا الله على أبرهة وجندة:

لا هم إن الـــعبد يمــ نع رحله فامنع رحلك
لا يغلبـــن صليبهــم ومحالهم أبـدا محـــالك.
وأنصر على آل الصليــ ب وعابديه اليوم آلك

فآل الصليب: هم الحبشة، النصارى عباد الصليب، فرجعوا إليه بوجه العبادة والتعظيم.

وآل الله: هم قريش سدنة بيته. وقطان[1] حرمه. وأواه حجيجه فرجعوا إلى الله تعالى بهذه الأسباب.

فأتباعه صلّى الله عليه وسلّم وأقاربه، وأزواجه وذريته ـ كلّهم يصدق عليه (آل). لأنهم كلهم يرجعون إليه.

وإنما الخلاف : في ترجيح المعنى ينبغي حمل اللفظ عليه في أحاديث الصّلاة: فمن فسّره بالأزواج والذرية قال: لأنهم هم المصرح بهم في الرواية الأولى فحمل إحدى الروايتين على الأخرى.

ومن فسّره بالأقارب .. حمل حديث الصّلاة تحريم الصدقة والآل هنا لك بمعنى الأقارب فلا خوف. فرجع بالمختلف فيه إلى المتفق عليه.

ومن فسّره بالأتباع: رأى أن أتباعه بالإيمان به أمر لا بد منه في الدخول تحت لفظ الآل هنا؛ فإن من كان من أقاربه غير متبع له ـ كأبي لهب[2] ـ غير داخل في لفظ الآل هنا قطعا. فحمل اللفظ على الأتباع لأنه المعنى المشتمل على الوصف الذي لا بد منه في هذا المقام.

ورأى أيضا أن هذا المعنى أعم، فهو الأنسب بمقام الدعاء.

وكما أن مساق حديث الصدقة عين معنى الأقارب هنالك؛ كذلك مقام الدعاء يرجح معنى الأتباع هنا.

---

1. سدنة: خدام الكعبة وقطان : سكان من قطن بمعنى توطن ـ 2. عم الرسول وعدوه.

ولا معارضة بين الروايات التي فيها لفظ الآل مرادا به الأتباع، والرواية التي فيها الأزواج والذرية، لأن تلك جاءت بالمعنى العام وهذه خصصت بالذكر نوعا من ذلك العام؛ لمزية فيه.

فأزواجه وذريته ـرضوان الله تعالى عليهمـ مصلّى عليهم في اللفظ العام على وجه العموم، وباللفظ الخاص على وجه الخصوص؛ لما لهم من مزيد الاختصاص.

ولهذه الأدلة نرى هذا التفسير أرجحها.وأما آل إبراهيم فقد قال قوم: هم ذريته وقال ابن عباس رضى الله عنه: هم أتباعه على ملته. ونزع بقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ﴾[1]. واقتصر على قوله ابن جرير الطبرى في تفسير الآية من تفسيره الكبير.

فابن عباس في تفسيره الآل بالأتباع هو سلف مالك في تفسيره له بذلك، وابن جرير في ترجيحه لقوله هو سلفنا في الترجيح.

قال الإمام ابن عبد البر: آل إبراهيم يدخل فيه إبراهيم وآل محمّد يدخل فيه محمّد. ومن هنا جاءت الآثار مرة بإبراهيم، ومرة بآل إبراهيم؛ وربما جاء ذلك في حديث واحد. ومعلوم أن قوله تعالى: ﴿أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾[2]... إن فرعون داخل فيهم.

وهذا من طريق مفهوم الإضافة الأحرى، لأن المضاف إذا تعلق به حكم بعلة الإضافة فالمضاف إليه أحرى بذلك الحكم وأولى كما تقول : ما ثبت للتابع بعلة التابعية فالمتبوع أحرى به وأولى. فإذا كان آل إبراهيم مصطفين، ومصلّى عليهم؛ لأنهم آله أي أتباعه- فهو مصطفى ومصلى عليه بطريق الأحرى، للوجه الذي ذكرنا.

يتبع

1. سورة آل عمران، الآية 68 ـ 2. سورة غافر، الآية 46.